أثر الفاصلة في توجيه المعنى

في حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير

القاضي البيضاوي.

إعداد

سمية السيد حسين عبد الله

الملخص :

تعدّ الفاصلة من أهم رو افد الإعجاز القرآني، بل هي لبّ الإعجاز وجوهره، فهي تراعي المعنى والسياق والجرس ،وخاتمة الآية وجو السورة ،وكلّ ما يتعلّق بجودة التعبير وجماليته.

وتنقسم إلى فواصل متجانسة ومتقاربة،ومتوازية ،ومطرفة،ومتوازنة. وعلاقة الفاصلة بما قبلها تنحصر في أربعة أشياء هي:التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال.

ولها وظائف جمالية ودلالية و إيقاعية ونصّية. وقد اهتمّ الشهاب الخفاجي في حاشيته بتوضيح مناسبة الفواصل القرآنية لسياق الآيات الواردة فيها،حيث تأتي الفاصلة متمكّنة في موقعها،مستقرّة في مكانها ،يتعلّق معناها بمعنى الآية بحيث لو طرحت أو غيّرت لاختلّ المعنى،وفسد النظم.

الكلمات المفتاحية : الفاصلة ، السياق، المناسبة،المعنى، الحاشية.

Abstract:

The comma is one of the most important tributaries of the Qur'anic miraculousness, rather it is the core and essence of the miraculousness. And the relationship of the comma with what precedes it is limited to four things: empowerment, export, tawheeh, and glaring. It has aesthetic, semantic, rhythmic and textual functions

Shihab al-Khafaji, in his footnote, was interested in clarifying the relevance of the Qur'anic commas to the context of the verses contained in them, where the comma comes in its position, stable in its place, its meaning is related to the meaning of the verse so that if it was subtracted or changed, the meaning would be disturbed, and the systems would be corrupted

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم،وعلى آله وصحبه أجمعين،وبعد؛

فإنّ كتاب الله هو المَعينُ الذي لا ينضبُ،والبحر الزخّار الذي لا يخيب أملُ الغواص فيه؛لكثرة الآلئ وغزير الأنوار، فما قصده قاصدٌ إلا رجع منه بما يسرّه،ولا تأمّل فيه متأملٌ إلا وجد فيه ضالته؛فأُعملت في التفكر فيه العقول،وبذلت على شواطئ آياته الجهود.

ومن أهم الخصائص التي تميز القرآن عن كل كلام بليغ أنّه يجمع في كلّ معنى يطرقه بين الوفاء بحق المعنى ،وحق الصياغة،وتناسب الفواصل، و أنّه مستمر في ذلك من أوّله إلى آخره... وتأتي الفاصلة التي هي جزء من الآية جامعة بين محاسن الصياغة وبلاغة المعنى بإحكام... متمكّنة في موقعها، مستقرة في مكانها، يتعلق معناها بمعنى الآية، بحيث لو طرحت أو غيّرت لاختل المعنى وفسد النظم؛ لأنّها لم تكن مجرد حِلية لفظية، بل جزء أصيل من البناء المحكم للعبارة، إن هي حجر الزاوية في ذلك البناء. (أبو زيد،1992م،ص 369 بتصرف) .

وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية، وتتناسب مع سياق نظمها، وهذا من إعجاز القرآن، قال الزركشي: "اعلم من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، و إيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلابدّ أن تكون مناسبة للمعنى المذكور، وإلا خرج الكلام عن بعض، وفواصل القرآن الكريم لا تخرج عن ذلك، لكن منه ما يظهر ومنه ما يستخرج بالتأمل اللبيب" (الزركشي،2013م،ص46، والعزّاوي،2016م، ص252و262) .

وتعرّف الفاصلة لغة بأنّها : الفَصْل بَوْن ما بين الشيئين؛ فَصَل يفصِل فَصْلا فانفصل، والفَصل من الجسد: موضع المَفْصِل، وفَصَلْت الشيء فانفصل أي قطعته، والانفصال مطاوع فَصل، ويقال فَصَل فلان عندي فُصُولًا إذا خرج، وفَصَل مني إليه كتاب إذا نفذ، ففَصَلَ يكون لازمًا وو اقعًا، فإذا كان و اقعًا

فمصدره الفَصْل، وإذا كان لازمًا فمصدره الفُصُول (ابن منظور،2013م، مج112/7 و113).

وللفاصلة في الاصطلاح عدة تعريفات؛ فقد عرّفها الرّماني (ت386هـ) بقوله: "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى" (الرّمّاني،ص97) ،فهو يؤكد على دور الفاصلة في المعنى، بالإضافة إلى دورها في الإيقاع المتولّد من المقاطع المتشاكلة، إلا أنّه يؤخذ على تعريفه، أنّه ضيّق من حده للفواصل؛ إذ هي عنده حروف الروي فحسب، بيد أنّها أكبر من ذلك، كما أنّه أشار إلى نوع واحد من الفواصل، وهي الفواصل المتشاكلة، أي المتماثلة.

وعرّفها الداني بقوله "كلمة آخر الجملة" ،كما فرّق بين الفاصلة ورؤوس الآيات بقوله: "أمّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل ممّا بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس، وكذلك الفواصل يكن رؤوس آي وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمّ النّوعين، وتجمع الضربين" (ينظر:الزركشي،2013م،ص34). وعليه فالفاصلة عنده على نوعين: فاصلة داخلية: تقع في داخل الآيات، وهي خاضعة لأحكام الوقف والابتداء.

وفاصلة خارجية: وهي ما يسمى عنده (رأس آية)، أي خاتمة الآية (عقيلان،2009م،ص9).

وعرّفها الزركشي؛ بقوله: "هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع" (الزركشي،2013م،ص34) ، ويتبنى البحث رأي الإمام الداني في تعريفه للفاصلة، وتفريقه بينها وبين رؤوس الآيات.

وتختلف الفاصلة عن السجع؛ حيث تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين بها سائر الكلام، وتسمّى فواصل ؛لأنّه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أنّ آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، ولم يسمّوها أسجاعًا (الزركشي،2013م،ص34) .

أنواع الفاصلة القرآنية:

تنقسم الفواصل من حيث تماثل حروفها أو تقاربها إلى نوعين

(الّرماني،1976م،ص 98 والزركشي،2013م،ص43و44):

فأما الأول: الفواصل المتجانسة، وهي ما تماثلت حروفها في المقاطع، وهي الفواصل المسجوعة، نحو قوله تعالى: {لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ... ﴿٨٨﴾ } (الأعراف: 88).

وأما الآخر: الفواصل المتقاربة ؛وهي ما تقاربت حروفها في المقاطع، ولم تتماثل، وهذا لا يكون سجعًا ؛ لأنّ السجع ما تماثلت حروفه، نحو قوله تعالى: {قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾} (سورة ق: 1و2) ،فالدال والباء متقاربان.

وقسّم البديعيون الفواصل والسجع إلى متواز ومطرف، ومتوازن؛ وأشرفها المتوازي ؛وهو أن تتفق الكلمتان في الوزن وحروف السجع، كقوله تعالى: { فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾} (سورة الغاشية: 13و 14) .والمطرف وهو أن يتفقا في حروف السجع لا في الوزن،كقوله تعالى:(ما لكم لا ترجون لله وقارًا.وقد خلقكم أطوارًا)(سورة نوح:13و14)

والمتوازن: أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط كقوله تعالى: { وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾} (سورة الصافات: 117 و118) ،فلفظ الكتاب والصراط متوازنان، وولفظ المستبين والمستقيم متوازنان .(الزركشي،2013م،ص45).

وللفاصلة علاقة وثيقة بما قبلها من النص القرآني في الآية، وقد يشير سياق الآية إلى فاصلتها إشارة لفظية جلية، وقد يظهر ذلك بعد بحث وتأمل، وعلاقة

الفاصلة بما قبلها تنحصر في أربعة أشياء هي: التمكين، والتصدير، والتوشيح، والإيغال(الزركشي،2013م،ص 46).

التمكين؛ وهو أن يمهد قبلها تمهيدًا تأتي به الفاصلة ممكّنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافذة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًا، بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم .(الزركشي، ص47)

ونحو ذلك قوله تعالى: {قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ .... إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾} (هود: 87)؛ فإنّه لمّا تقدّم في الآية ذكر العبادة،

وتلاه ذكر التصرف في الأموال، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب؛ لأنّ الحلم يناسب العبادات، والرشد يناسب الأموال (السيوطي،2006م،ج3/ 256).

وأما التصدير [1] : فهو أن تكون اللفظة بعينها تقدمت في أول الآية، وتسمّى أيضًا ردّ العجُز على الصدر.

وهو ثلاثة أقسام؛ (ينظر:السيوطي،2006م،ج262/3)

الأول: أن يوافق آخر الفاصلة، آخر كلمة في الصدر، نحو{ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ } (النساء: 166)

والثاني: أن يوافق أول كلمة منه، نحو{ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ } (آل عمران: 8).

والثالث: أن يوافق بعض كلماته، نحو{ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ

فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾}

(الأنعام: 10).

وأما التوشيح: ويسمّى به لكون نفس الكلام يدل على آخره، نزّل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح، اللذين يجول عيهما الوشاح، ولهذا قيل فيه: إنّ الفاصلة تعلم قبل ذكرها، وسمي المطمع؛ لأنّ صدره مطمع في عجزه كقوله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ } (آل عمران: 33).

فإنّ معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة؛ إذ المذكورين من جنس العالمين(الزركشي،2013م،ص57).

وربما اختلط التوشيح بالتصدير؛ لكون كل منهما صدره يدل على عجزه، والفرق بينهما أن دلالة التصدير لفظية، ودلالة التوشيح معنوية (ينظر:السيوطي،2006م،ج3/ 262 بتصرف).

الإيغال؛ وسمّي به ؛لأنّ المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادة على الحد، يقال: أوغل في الأرض إذا بلغ منتهاها، فهكذا المتكلم إذا تمّ معناه ثمّ تعدّاه بزيادة فيه فقد أوغل كقوله تعالى: { أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ }

(المائدة: 50) فإنّ الكلام تمّ بقوله تعالى (ومن أحسن من الله حكمًا) ،ثمّ احتاج إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى فلمّا أتى بها أفاد معنى زائدًا .(الزركشي،2013م،ص57) .

أهمية الفاصلة: إن القصد من الفواصل القرآنية هو توضيح المعنى، وتوفير الرونق اللفظي، فالقرآن ينتقي الفاصلة التي فيها الإعجاز البياني، فهي تلائم مضمون الآية، وتناسب إيقاع النص كله، فلا يجد السامع انقطاعًا في الكلام، بل

الانسجام العجيب من جراء ما تجليه للسياق العام (فطة،عبد القادر،2014م،ع 94).

لم تقف أهميتها عند هذا الحد بل غطّت دلالتها أسماء الله الحسنى، فأغلب السور احتوت فواصلها عددًا من أسماء الله الحسنى ،فهي ترد في نهاية الآيات، وتترك وقعها في النفوس"ترد الفواصل الجميل للأسماء الحسنى إذ تنزلها منزلًا حسنًا في ختام الآيات، وتبذل لها النصيب الأوفى من النفوس والأسماع؛ لأنّها آخر ما يتناهى إلى القارئ والسامع من الآيات"(الحسناوي،2000م،ص314) [2]، فهناك الأسماء المفصلة كالرحمن الرحيم، وأسماء مشتقة من المفصلة كذي انتقام، وما يزيدها جمالًا هو ورودها مقترنة فقلّما ترد مفردة، أمّا تنويعها فله أثر المدوّى في أرجاء السياق. (فطة،عبد القادر،2014م،ع 94) .

وللفواصل القرآنية وظائف، هي:

- وظيفة جمالية: ذكرد/تمام حسان؛ أنّ الفاصلة القرآنية تأتي في نهاية الآية؛ لتحقق للنص جانبًا جماليًا لا يخطئه الذوق السليم ؛لأنّنا مهما يكن من شيء نحسّ أنّها تضفي على النص قيمة صوتية منتظمة ينقسم سياق النص بها إلى وحدات صوتية تعدّ معالم للوقف والابتداء، وتتضافر مع الإيقاع فينشأ من تضافرهما أثر جمالي لا يبعد كثيرا عما نحسه من وزن الشعر وقافيته، ولكن هذا الأمر يختلف عن ذلك بالحرية من كل قيد تفرضه الصنعة على الوزن والقافية...والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة نراها في كثير من آيات القرآن ،وربّما أدّت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة...وهذه وظيفة جمالية تستحق الرعاية ولوتعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية.(حسّان،1993م،ص279).

-ووظيفة دلالية: وذلك أنّ ثمة ظواهر تركيبية في جملة الفاصلة تعمل على بناء الفاصلة، وتساعد على إفراز الدلالة التي تتناسب وسياق النص الذي ترد فيه، من مثل دلالة التوكيد، أو التعظيم والتهويل، أوالتهديد، أو الاستعطاف، أو غيرها من الدلالات (رفاعي،2015م،ص10).

- ووظيفة صوتية إيقاعية، ويمكن ضمّها للوظيفة الجمالية؛ ذلك أنّ الفواصل تخلق إيقاعًا موسيقيًا يمتع المتلقّي ويسعده، وهي بمثابة القفل الإيقاعي

للآية، وهي موضع الوقف الذي يستريح به القارئ المرتّل للقرآن؛ لذا فقد سعى القرآن إلى "ظاهرة الفواصل أو السجع عن قصد ووعي بما تحدثه من جمال أدبي، وما تثيره من أثر شعوري" (نصار،1999م،ص232).

- ووظيفة نصية: وهذه الوظيفة الرئيسة تضم ثلاث وظائف فرعية، هي (رفاعي،2015م،ص11):

- سبك النص: وذلك أنّ جملة الفاصلة قد تضمّ بعضًا من وسائل السبك النحوي، من مثل: الإحالة والحذف والاستبدال، أو السبك المعجمي من مثل: التكرار والمصاحبة المعجمية، وهذه الوسائل قد تربط جملة الفاصلة بآيتها، أو بالآيات السابقة عليها؛ مما يعمل على سبك النص وتماسكه لفظيًا.

- حبك النص: ذلك أنّ جملة الفاصلة تأتي مناسبة لمضمون الآية، وتأتي هذه المناسبة من ارتباطها بآيتها عن طريق علاقات معنوية، من مثل: التأكيد، أو التعليل، أو السبب والنتيجة...أو أن تكون متمّمة لمعنى الآية، وبذلك يتمّ حبك النص معنويًا.

-تيسير حفظ القرآن الكريم: وهي وظيفة نصية إعلامية؛ فقد ذكر الطاهر بن عاشور(ت1394هـ) أن من أوجه اتساع اللغة في القرآن ابتكار الفواصل التي تيسّر حفظه، يقول: "وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيب، وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع ،وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف الانتقال والسير في القبائل" (ابن عاشور،1997م،مج4/ج1/ 119 طدار سحنون).

وتعدّ الفاصلة من أهم روافد الإعجاز القرآني بل هي لبّ الإعجاز وجوهره؛ فهي تتعلّق بمضمون الآية،وتتناسب مع سياق نظمها.

ولقد اهتمّ الشهاب الخفاجي في حاشيته بتوضيح دلالات الفواصل القرآنية،ومدى مناسبتها لسياق الآيات التي وردت فيها أو السياق العام للسورة.

ففي قول الله تعالى:(لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ

ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾) (الأنعام: ١٠٣) الملاحظ في هذه الآية الكريمة

أنّها قد وضعت فاصلتها في الموضع الذي لا يمكن أن يغنيه فاصلة أخرى ،وسبب ذلك؛ أنّه سبحانه وتعالى لمّا قدّم نفي إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: (وهو اللطيف) خطابًا للسامع بما يفهم؛ إذ العادة أنّ كل لطيف لا تدركه الأبصار، فحاسة البصر تدرك اللون من كل متلون ،والكون من كل متكون، فإدراكها إنّما هو للمركبات دون المفردات، ولذلك لمّا قال تعالى: (وهو يدرك الأبصار) عطف عليه قوله : (الخبير) مخصصًا لذاته سبحانه بصفة الكمال؛ لأنّه ليس كل من أدرك شيئًا كان خبيرًا بذلك الشيء؛ لأنّ المدرك للشيء قد يدركه ليخبره، ولمّا كان الأمر كذلك أخبر سبحانه وتعالى أنّه يدرك كل شيء مع الخبرة به، و إنّما خصّ الإبصار بإدراكه ؛ليزيد في الكلام ضربًا من المحاسن، يسمى التعطف ،ولو كان الكلام لا تبصره الأبصار، وهو يبصر الأبصار لم تكن لفظتا (اللطيف الخبير) مناسبتين لما قبلهما (الزركشي،2013م،ص48) .

يرى الشهاب أنّ قوله تعالى (اللطيف الخبير) من باب اللف؛ فإنّ اللطيف يناسب كونه غير مدرَك بالفتح، والخبير يناسب كونه مدرِكًا بالكسر، وقد ذكر البيضاوي أنّ اللطيف مستعارًا من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة، ولا ينطبع فيها، وبقوله هذا يرى الشهاب أنّه قد اندفع ما قيل: إنّ المناسب لعدم الإدراك اللطيف المشتق من اللطافة، وهو ليس بمراد هنا، وأمّا اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الر أفة فلا يظهر له مناسبة هنا، وقد ذكر الشهاب أنّ اللطيف الذي يعامل عباده باللطف، وألطافه لا تنتهي ظواهرها وبواطنها في الأولى والآخرة، والله لطيف بعباده يرزق من يشاء هيّأ مصالح الناس من حيث لا يشعرون، وأخفى لطفه من حيث لا يعلمون، وقيل اللطيف العليم بالغوامض والدقائق من المعاني والحقائق.

ويحتمل أن يكون من اللطافة المقابلة للكنافة، وهو وإن كان في ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم، لكن اللطافة المطلقة لا توجد في الجسم؛ لأنّ الجسمية يلزمها الكنافة ،و إنّما لطافتها بالإضافة، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق الذي يجلّ عن إدراك البصائر فضلًا عن الإبصار،ويعز عن

شعور الإسرار فضلا عن الأفكار، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ،وينزه عن حلول الألوان والإشكال، فإنّ كمال اللطافة إنّما يكون لمن هذا شأنه ،ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق، بل بالقياس إلى ما دونه في اللطافة ،ويوصف بالنسبة إليه بالكنافة. وهذا يقتضي أنّه حقيقة فيه تعالى.

والخبير للمبالغة فيه يكون علة، والمقام وإن اقتضى ترك العطف لكن المقصود به إثبات هذه الأوصاف (الخفاجي،1997م،ج174/4) .

وقد ناسبت الفاصلة مضمون الآية الكريمة، فعلاقتها بما سبقها في الآية هي علاقة التمكين (الزركشي،2013م،ص47) ؛حيث جاءت الفاصلة ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير قلقة ولا نافرة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًّا بحيث لو طرحت اختلّ المعنى واضطرب الفهم .ففي قوله عز وجل: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ) قال جمهور المفسرين معنى الإدراك: الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته ، قال سعيد بن المسيب: قوله (لا تدركه الأبصار)، لا تحيط به الأبصار،وقال ابن عباس: كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به.

وقوله تعالى: { وهو يدرك الأبصار } يعني أنّه تعالى يرى جميع المرئيات، ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ،ويعلم حقيقتها، ومطّلع على ماهيتها،فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرين وهو يدركها (ينظر:الخازن،1994م،ج142/2و143) .

وَجُمْلَةُ: { وهو اللطيف الخبير} جملة اسمية تفيد ثبوت هاتين الصفتين لله تعالى، وهي مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ: { لا تدركه الأبصار } فَهِيَ صِفَةٌ أُخْرَى.

أَوْ هِيَ تَذْيِيلٌ لِلِاحْتِرَاسِ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ أَنَّ مَنْ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ لَا يَعْلَمُ أَحْوَالَ مَنْ لَا يُدْرِكُونَهُ.

وَاللَّطِيفُ: وَصْفٌ مُشْتَقٌّ مِنَ اللُّطْفِ أَوْ مِنَ اللَّطَافَةِ؛فهي صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ أَوِ اسْمُ فَاعِلٍ.

فَإِنِ اعْتُبِرَتْ وَصْفًا جَارِيًا عَلَى لَطُفَ- بِضَمِّ الطَّاءِ- فَهِيَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ صِفَةُ تَنْزِيهِهِ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ الْعُقُولِ بِمَاهِيَّتِهِ أَوْ إِحَاطَةِ الْحَوَاسِّ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَيَكُونُ اخْتِيَارُهَا لِلتَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ فِي

جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مُنْتَهَى الصَّرَاحَةِ وَالرَّشَاقَةِ فِي الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ مَادَّةٍ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تُقَرِّبُ مَعْنَى وَصْفِهِ تَعَالَى بِحَسَبِ مَا وُضِعَتْ لَهُ اللُّغَةُ مِنْ مُتَعَارَفِ النَّاسِ، فَيَقْرُبُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَعَلَيْهِ فَتَكُونُ أَعَمَّ مِنْ مَدْلُولِ جُمْلَةِ (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ)، فَتَتَنَزَّلُ مِنَ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا مَنْزِلَةَ التَّذْيِيلِ أَوْ مَنْزِلَةَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْجُزْئِيَّةِ بِالْكُلِّيَّةِ ،فَيَزِيدُ الْوَصْفُ قَبْلَهُ تَمَكُّنًا.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَمَلَهَا الزَّمَخْشَرِيُّ فِي «الْكَشَّافِ»؛ لِأَنَّهُ أَنْسَبُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ مِنْ مَعَانِي الْكَلِمَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَجَوَّزَهُ الْبَيْضَاوِيُّ، وَهُوَ الَّذِي يَنْبَغِي التَّفْسِيرُ بِهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ اقْتَرَنَ فِيهِ وَصْفُ اللَّطِيفِ بِوَصْفِ الْخَبِيرِ كَالَّذِي هُنَا وَالَّذِي فِي سُورَةِ الْمُلْكِ.

وَإِنِ اعْتُبِرَ اللَّطِيفُ اسْمَ فَاعِلٍ مِنْ لَطَفَ- بِفَتْحِ الطَّاءِ- فَهُوَ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ يَدُلُّ عَلَى وَصْفِهِ تَعَالَى بِالرِّفْقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى مَخْلُوقَاتِهِ وَ إِتْقَانِ صُنْعِهِ فِي ذَلِكَ وَكَثْرَةِ فِعْلِهِ ذَلِكَ، فَيَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَمَلَهُ سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُبَيِّنِينَ لِمَعْنَى اسْمِهِ اللَّطِيفِ فِي عِدَادِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى.

وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُنَاسِبُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ جَاءَ فِيهِ وَصْفُهُ تَعَالَى بِهِ مُفْرَدًا مُعَدًّى بِاللَّامِ أَوْ بِالْبَاءِ نَحْوِ{ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ } [يُوسُف: 100]، وَقَوْلِهِ: { ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ } [الشورى: 19].

فَإِذَا حُمِلَ عَلَى هَذَا الْمَحْمَلِ هُنَا كَانَ وَصْفًا مُسْتَقِلًّا عَمَّا قَبْلَهُ ؛لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِ اسْتِحْقَاقِهِ تَعَالَى لِلْإِفْرَادِ بِالْعِبَادَةِ دُونَ غَيْرِهِ.

وَ «خَبِيرٌ» صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنْ خَبُرَ- بِضَمِّ الْبَاءِ- فِي الْمَاضِي، خُبْرًا- بِضَمِّ الْخَاءِ وَسُكُونِ الْبَاءِ- بِمَعْنَى عَلِمَ وَعَرَفَ، فَالْخَبِيرُ الْمَوْصُوفُ بِالْعِلْمِ بِالْأُمُورِ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يُخْبِرَ عَنْهَا عِلْمًا مُوَافِقًا لِلْوَاقِعِ.

وَوُقُوعُ الْخَبِيرِ بَعْدَ اللَّطِيفِ عَلَى الْمَحْمَلِ الْأَوَّلِ وُقُوعُ صِفَةٍ أُخْرَى هِيَ أَعَمُّ مِنْ مَضْمُونِ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ، فَيَكْمُلُ التَّذْيِيلُ بِذَلِكَ وَيَكُونُ التَّذْيِيلُ مُشْتَمِلًا عَلَى

مُحَسِّنِ النَّشْرِ بعد اللَّفِّ ،وَعَلَى الْمَحْمَلِ الثَّانِي مَوْقِعُهُ مَوْقِعُ الِاحْتِرَاسِ لِمَعْنَى اللَّطِيفِ، أَيْ هُوَ الرَّفِيقُ الْمُحْسِنُ الْخَبِيرُ بِمَوَ اقِعِ الرِّفْقِ وَالْإِحْسَان وبمستحقّيه (ابن عاشور، 1984م، ج7/417و418).

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾) (الأنعام: ١٥١ – ١٥٣) .

اجتمعت الفواصل في موضع واحد، وخولف بينها، فاختتمت الآية الأولى بقوله تعالى { لعلكم تعقلون }، والثانية بقوله: { لعلكم تذكرون }، والثالثة بقوله تعالى: (لعلكم تتقون) ؛ لأنّ الوصايا التي في الآية الأولى إنّما يحمل على تركها عدم العقل الغالب على الهوى؛ لأنّ الإشراك بالله لعدم استكمال العقل الدّال على توحيده وعظمته، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى

الولد بكل طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الحي الكريم، وَكَذَلِكَ إِتْيَانُ الْفَوَاحِشِ لَا يَقْتَضِيهِ عَقْلٌ ،وَكَذَا قَتْلُ النَّفْسِ لِغَيْظٍ أَوْغَضَبٍ فِي الْقَاتِلِ فَحَسُنَ بَعْدَ ذَلِكَ يَعْقِلُونَ.

وأما الثانية فلتعلّقها بِالْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ ،فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ لَهُ أَيْتَامًا يَخْلُفُهُمْ مِنْ بَعْدِهِ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُعَامِلَ أَيْتَامَ غَيْرِهِ إِلَّا بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ أَيْتَامُهُ ،وَمَنْ يَكِيلُ أَوْ يَزِنُ أَوْ يَشْهَدُ لِغَيْرِهِ لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ لَهُ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ خِيَانَةٌ وَلَا بَخْسٌ ،وَكَذَا مَنْ وَعَدَ لَوْ وُعِدَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يُخْلَفَ ،وَمَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ عَامَلَ النَّاسَ به لِيُعَامِلُوهُ بِمِثْلِهِ ،فَتَرْكُ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِغَفْلَةٍ عَنْ تَدَبُّرِذَلِكَ وتأمله ؛فلذلك نَاسَبَ الْخَتْمَ بِقَوْلِهِ: {لعلكم تذكرون}.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فلأنّ تَرْكَ اتِّبَاعِ شَرَائِعِ اللَّهِ الدِّينِيَّةِ مُؤَدٍّ إِلَى غَضَبِهِ وَإِلَى عِقَابِهِ؛ فَحَسُنَ {لعلكم تتقون } أَيْ عِقَابَ اللَّهِ بِسَبَبِهِ (السيوطي، 2006م، ج258/3).

فكلام السيوطي يوضح لنا مدى مناسبة كل فاصلة لمضمون الآية التي وردت فيها.

ويعلّل الشهاب اختلاف الفواصل مع التفنن بالأمر والنهي؛ لأنّ المنهيات كالشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس كانت العرب لا تستنكف منها، وأمّا الإحسان للوالدين ،و إيفاء الكيل وصدق القول ،والوفاء بالعدل فكانوا يفعلونه فلذا أمروا بالثبات عليه وتذكره (الخفاجي،1997م، ج227/4) .

وقد يكون سبب اختلاف الفواصل أنّه؛ لمّا كانت الخلل الخمس فى الآية الأولى وهى: الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقروارتكاب الفواحش وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق، خمستها مما يدرك العقل ابتداء قبحها، ويستقل بدركها أعنى أنّ العقل يستوضح قبحها شرعا لبيان أمرها فى استقباح الشرع إيّاها، فلمّا كانت على ذلك أتبعت بترجى التعقل ؛لأنّ السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق الله تعالى؛ ولذلك جاءت بأداة الترجى.

ولمّا كانت الخمس التالية لها وهى قوله: "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن " إلى آخرها ممّا تؤثر فيه الشهوات والأهواء ،وذلك مما يعمى ويصم ،أتبع برجاء التذكر فقيل: "لعلكم تذكرون " ومن تذكّر أبصر فعقل فامتنع.... ولمّا كان

مجموع هذه المرتكبات العشر ممّا اتفقت عليه الشرائع ولم ينسخ منها شئ ،وهى الحكمة التى من أخذ بها كان سالكًا الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمت، و اتخذ أسنى وقاية من عذاب الله قال تعالى: "وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه " والأمر عام لكافة الخلق ثم قال سبحانه وتعالى: "ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله " أتبعه بقوله: "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " وترتب حاصلا من مضمن الآيات الثلاث أنّه من عقل وتذكر اتقى ،والمتقون هم المفلحون فسبحان من هذا كلامه (الغرناطي، ص173و174)

وقولُه تعالى وصاكم به } أي أمركم به ربكم أمرًا مؤكدًا خبرُه، والجملة استئنافٌ جيء به تجديدًا للعهد ،وتأكيدًا لإيجاب المحافظة على ما كُلِّفوه، وَفِي لَفْظِ (وَصَّاكُمْ) مِنَ اللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ وَجَعْلِهِمْ أَوْصِيَاءَ لَهُ تَعَالَى مَا لَا يَخْفَى مِنَ الْإِحْسَانِ (العمادي، ج3/ 199 والأندلسي،2000م، ج4/ 688).

ويمكن أن يقال: إنّ أكثر التكليفات الأول أُدِّي بصيغة النهي وهو في معنى المنع، والمرء حريص على ما منع، فناسب أن يعلل الإيصاء بذلك بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس، وهذا بخلاف التكليفات الأخر، فإنَّ أكثرها قد أُدِّي بصيغة الأمر وليس المنع فيها ظاهرا كما في النهي، فيكون تأكيد الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر إذا نسي . (الألوسي، 1994م، ج299/4).

.

وفي قوله تعالى: { قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ } (الأعراف: 125)

وردت الآية الكريمة في سياق الآيات الواردة في قصة نبي الله موسى | مع فرعون والسحرة، فعندما آمن السحرة هددهم فرعون بكل صور التعذيب، والقتل البشعة حتى يعودوا عن الإيمان بالله تعالى ،فإذا بقول السحرة الذي أخبره الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا إنَّا إلى ربنا منقلبون).

وقد استدعى الشهاب شاهد سورة الشعراء، إذ وردت هذه القصة فيها، في قوله تعالى: { قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ

لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ } (الآية: 50 و51)، هنا يوضح الشهاب أنّ هذه القصة جاءت مفصّلة في الشعراء، مجملة هنا فحملت هذه على تلك، وقد عُلِّل عدم المبالاة الذي يعطيه لاضير بالانقلاب إلى الله، والطمع في الثواب؛ فلذا فسرت بوجوه،

الأوّل: إنّا لا نبالي بالموت الذي نلاقي به رحمة الله، ونخلص منك، والضمير للسحرة فقط.

والثاني: إنّنا ننقلب إلى الله فيثيبنا على ما عذبتنا به، وما فعلت بنا نافع لنا لتكفيره الخطايا، ونيل الثواب العظيم، والضميرلهم أيضا.

والثالث: إنّا جميعا ننقلب إلى الله ،فيحكم بيننا وينتقم لنا منك، ويثيبنا على ما قاسيناه، والضميرلهم ولفرعون.

والرابع: إنّا ولا بدّ ميتون فلا ضيرفيما تتوعدنا به، والأجل محتوم لا يتأخّرعن وقته، والضمير فيه يحتمل السحرة والجميع، والبيضاويّ جعله ثلاثة ؛لأنّ الأخير والأوّل في المعنى واحد (الخفاجي،1997م،ج348/4).

وقد جمع الشهاب بين آية الشعراء والأعراف لكن غيره من العلماء حاول التفريق بين الشاهد في السورتين ؛ففي الشعراء: قوله { لا ضيـر} مقابل به ما تقدم من قوله: وقالوا بعزة فرعون } (الشعراء: 44) ،لما اعتقدوا أولا أنّ له عزة نسبوها إليه، فظنّوا أنّه يقدرعلى ما يريده ويستبد بفعله، ثمّ لما وضح لهم الحق رجعوا عن اعتقادهم ،وعلموا أنّ العزة لله تعالى ،ولم يبالوا بفرعون وملئه ؛لذلك قالوا: { لا ضيـر }؛ أي لا ضرر ولا خوف من فرعون إذ العزة لله وحده، ولمّا لم يقع في الأعراف أولا مثل الواقع في الشعراء لم يجيبوا في الجواب بما جاؤوا به في الشعراء، فافترق الموضعان وجاء كل على ما يجب)(الغرناطي،ص222).

ويرى الكرماني (ص69) أنّ القصة اشبعت في الشعراء، فلهذا وقع فيها زوائد لم تقع في الأعراف وطه، وأنّ ذلك من إعجاز القرآن.

وقوله تعالى: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ الأنفال:١٣

ذلك في الآية الكريمة إشارة إلى الضرب أو الأمر به، والخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب.

والفاصلة هنا تقرير؛للتعليل في قوله تعالى { بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ }، والمراد بالتعليل السببية، وهذا بيان له بطريق البرهان أي ما أصابهم بسبب المشاقة لله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فهو مستحق للعقاب ؛ لذا قال البيضاوي تقرير،ولم يقل تأكيد، ويحتمل أن يريد التأكيد هذا إن أريد بالعقاب ما وقع في الدنيا ،فإن كان الأخروي فهو وعيد وبيان لخسرانهم في الدارين، ويحتمل أن يريد أنّ هذا تقرير لما قبله ؛لأجل ما فيه من بيان العلة، والمعنى استحقوا ما ذكربسبب تلك المشاقة؛ لأنهم شاقوا من هو شديد العقاب سريع الانتقام (الخفاجي،1997م، ج446/4) .

والإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى { وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ} لتربية المهابةِ ،وإظهار كمالِ شناعة ما اجترءوا عليه ،والإشعارِ بعلة الحُكم ،وقولُه تعالى{فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ } إمَّا نفسُ الجزاءِ قد حُذف منه العائدُ إلى مَنْ عندِ منْ يلتزمُهُ أي شديدُ العقابِ له ،أو تعليلٌ للجزاءِ المحذوفِ أي يعاقبْه الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقابِ ،و أيًّا مَا كانَ فالشرطيةُ تكملةٌ لما قبلها وتقريرٌ لمضمونِهِ ،وتحقيقٌ للسببيةِ بالطريقِ البرهانيّ ،كأنّه قيل: كلُّ من يشاقق الله ورسولَه كائنا مَنْ كان فلهُ بسببِ ذلكَ عقابٌ شديدٌ، ويرفض أبو السعود أنّه وعيد لهم بما أَعدَّ لَهُم في الآخرةِ بعد ما حاقَ بهم في الدُّنيا كما قيل ؛لأنّ قولِه تعالى: (ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾) بعده يردّه (العمادي، ج11/4).

وَجُمْلَةُ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾، تَذْيِيلٌ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَيَعُمُّ أَصْنَافَ الْعَقَائِدِ.وَالْمُرَادُ من قَوْله: { فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ } ؛ الْكِنَايَةُ عَنْ عِقَابِ الْمُشَاقِّينَ وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ الِارْتِبَاطُ بَيْنَ الْجَزَاءِ وَبَيْنَ الشَّرْطِ ،بِاعْتِبَارِ لَازِمِ الْخَبَرِ وَهُوَ الْكِنَايَةُ عَنْ تَعَلُّقِ مَضْمُونِ ذَلِكَ الْخَبَرِ بِمَن» حَصَلَ مِنْهُ مَضْمُونُ الشَّرْطِ (ابن عاشور،1984م، ج284/9) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ترتبط الفاصلة بالآية الكريمة ارتباطًا قويًا ؛فالله تعالى قد ذكر نبيّه × بمكر قريش به حين كان بمكة؛ ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك (ليثبتوك) بالوثاق ،أو الحبس أو الإثخان بالجرح (أو يقتلوك) بسيوفهم (أويخرجوك) من مكة، حينما اجتمعوا في دار الندوة ودخل عليهم إبليس في صورة رجل (الخفاجي،1997م، ج464/4)[3] والقصة مفصلة في كتب السير، فتكون النتيجة { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ }.

والمكر لمّا كان معناه حيلة يجلب بها مضرّة إلى غيره، وهو ممّا لا يجوز في حقه تعالى أشار-يقصد المصنف- إلى تأويله هنا بوجوه:

أولها: أنّ المراد بمكر الله ردّ مكرهم أي عاقبته ،ووخامته عليهم، فأطلق على الردّ المذكور مكرًا ؛لمشابهته له في ترتب أثره عليه فيكون استعارة تبعية.

وثانيها: أنَّ المراد مجازاتهم على مكرهم بجنسه ،وإطلاق المكر على المجازاة مجاز مرسل بعلاقة السببية، والمشاكلة تزيده حسنًا على حسن، ويصح فيه الاستعارة أيضا ؛لأنّهم لمّا أخرجوه صلى الله عليه وسلم أخرجهم الله ،فإذا كان المجازاة من جنس العمل كان بينهما مشابهة أيضًا.

وثالثها: أن يكون استعارة تمثيلية بتشبيه حالة تقليلهم في أعينهم الحامل لهم على هلاكهم بمعاملة الماكر المحتال بإظهار خلاف ما يضمر أو إنّه مشاكلة صرفة فالوجوه أربعة (الخفاجي،1997م،ج4/465).

وبتحليل الفاصلة يتبين: { وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ } ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ.وَالْمَكْرُ مِنَ اللَّهِ هُوَ جَزَاؤُهُمْ بِالْعَذَابِ عَلَى مَكْرِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يشعرون (القرطبي، 1964م، ج7/397).

ويذكر الشهاب في قوله تعالى (والله خير الماكرين) رأي يعتدّ به أنَّ إطلاق خير الماكرين عليه تعالى إذا جعل باعتبار أن مكره أنفذ ،و أبلغ تأثيرًا فالإضافة للتفضيل على المضاف ؛لأنّ لمكر الغير أيضًا نفوذًا وتأثيرًا في الجملة، وهذا معنى أصل فعل الخير فتحصل المشاركة فيه، وإذا جعل باعتبار أنَّه لا ينزل إلا الحق، ولا يصيب إلا بما استوجبه الممكور به فلا شركة لمكر الغير فيه، فالإضافة حينئذ للاختصاص ...، وقيل هو من قبيل الصيف أحرّ من الشتاء بمعنى أنّ مكره في خيريته أبلغ من مكر الغير في شريته وكلام المصنف رحمه الله يمكن تنزيله على هذا (الخفاجي،1997م،ج4/465).

وللسياق دورًا في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها أنّ هذه تشير إلى أن المتقي كما يجعل الله له فرقانا يمنع من الاجتراء على أهله وماله وعرضه، يحفظه من مكر من مكر به، بل يمكر له على ماكره(القاسمي،1997م، ج5/282).

ولابن عاشور إشارة جليلة في موقع الواو من قوله تعالى﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ لَمْ يرَ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَرَّجَ عَلَى بَيَانِهِ وَهِيَ أنها تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ وَاوَ الْحَالِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهِيَ حَالٌ مُؤَسَّسَةٌ غَيْرُ مُؤَكَّدَةٍ، بِاعْتِبَارِ مَا اتَّصَلَ بِهَا مِنَ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ عَلَيْهَا، وَهِيَ جُمْلَةُ: وَيَمْكُرُ اللَّهُ فَقَوْلُهُ: وَيَمْكُرُ اللَّهُ هُوَ مَنَاطُ الْفَائِدَةِ مِنَ الْحَالِ وَمَا قَبْلَهُ تَمْهِيدٌ لَهُ

وَتَنْصِيصٌ عَلَى أَنَّ مَكْرَهُمْ يُقَارِنُهُ مَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ، وَالْمُضَارِعُ فِي يَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ لِاسْتِحْضَارِ حَالَةِ الْمَكْرِ.

وَثَانِيهِمَا: أَنْ تَكُونَ وَاوَ الِاعْتِرَاضِ أَيِ الْعَطْفِ الصُّورِيِّ، وَيَكُونَ الْمُرَادُ بِالْفِعْلِ الْمَعْطُوفِ الدَّوَامُ ؛أَيْ هُمْ مكروا بك لثبتوك أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ،وَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَمْكُرُونَ ... فَتَكُونُ جُمْلَةُ (وَيَمْكُرُونَ) مُعْتَرَضَةً ،وَيَكُونُ جُمْلَةُ: (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) مَعْطُوفَةً عَلَى جُمْلَةِ: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، وَالْمُضَارِعُ فِي جُمْلَةِ: وَيَمْكُرُونَ لِلِاسْتِقْبَالِ وَالْمُضَارِعُ فِي (وَيَمْكُرُ اللَّهُ)؛ لِاسْتِحْضَارِ حَالَةِ مَكْرِ اللَّهِ فِي وَقْتِ مَكْرِهِمْ مِثْلَ الْمُضَارِعِ الْمَعْطُوفِ هُوَ عَلَيْهِ (ابن عاشور، ج328/9).

وعلاقة الفاصلة بالآية الكريمة هي التصدير، وهو كما سبق ذكره أن تكون اللفظة بعينها تقدّمت في أول الآية، وتسمى أيضًا ردّ العجُز على الصدر، وهنا و افق العجز الصدر، بل تكرّر مثل: (يمكر) ،(ويمكرون) ،(ويمكر الله)،والفاصلة (والله خير الماكرين).

وقوله تعالى: {۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾} التوبة.

ذكر الشهاب في قوله تعالى:{وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ} جعل الله تعالى خلق داعية القعود فيهم بمنزلة الأمر،والقول الطالب كقوله تعالى: فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ } (البقرة: 243)

أي أماتهم، ويرى البيضاوي أن-الفاصلة- تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو حكاية قول بعضهم لبعض أو إذن الرسول عليه السلام لهم (ينظر:الخفاجي، ج4/ 576 والعمادي، ج71/4).

واختلفت الآراء في القاعدين:

فالزمخشري(1997م، ج276/2) [4] يرى أنّ قوله تعالى {{ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ} هو ذمّ لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون والخالفون ويبينه قوله تعالى { رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ } (التوبة: 87).

وقد ذكر الشهاب رأي الزمخشري، وأضاف أنّ القاعدين يحتمل أنّ يراد بهم المعذورون الذين لهم عذر يمنعهم عن الخروج كالمرضى، ويحتمل أن يراد غيرهم ممن لا يحتاج إلى عذر في التخلف كالصبيان والنساء.

وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم؛ لأنّ المراد بالأمر التخلية ،والتوبيخ لا حقيقته، وقيل: المراد بالوجهين أن يراد بالقول المجاز أو الحقيقة، ولذا قيل: إنَّه على الأخير لا ذم فيه (الخفاجي، ج577/4 ،والطبري، 2000م، ج14/ 276).

وبتحليل الفاصلة يتبين أنّ قوله تعالى: (قيل) بالبناء لمفعول أسند إلى المفعول ؛ لتعدد عوامل التخذيل التي كانت في مضمون القول، فجبنهم، وإرادة الشر بالمؤمنين وبعد الشقة، وكون الغاية فيه بعيدة، وفساد نفوسهم، وتخاذلهم عن نصرة الحق، وكراهية الإيمان وأهله، كل هذه عوامل يمكن أن تكون الفاعل الذي استعيض عنه بالمفعول، والمفعول المقول، وهو اقعدوا مع القاعدين...وقد بين الله تعالى الحكمة في أنّه ثبطهم، فلم يخرجوا(أبو زهرة، ج3320/6 و3321 بتصرف،و الزمخشري، ج276/2) فقال سبحانه: لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ (التوبة)

وهذا يبين مدى ارتباط سياق هذه الآية الكريمة بسياق الآية التي تليها، ومدى المناسبة بينهما.

وفي الختام :لقد حاول هذا البحث بيان أثر الفاصلة في المعنى في حاشية من أفضل الحواشي التي كتبت على تفسير القاضي البيضاوي، من خلال التطبيق على مجموعة من السور القرآنية،وهي الأنعام والأعراف والأنفال والتوبة، ومن أهم النتائج؛

-اهتمّ الشهاب بتسليط الضوء على دلالات الفواصل القرآنية،ومدى ملاءمتها لمضمون الآيات الواردة فيها،فقد جاءت الفواصل القرآنية ممكنة في مكانها،مطمئنة في موضعها،متعلقًا معناها بمعنى الكلام كلّه بحيث لو طرحت لاختلّ المعنى واضطرب الفهم.

-وتجلّى مدى أهمية الفواصل القرآنية في إكسابها الأسلوب القرآني قوة وتماسكًا عن طريق انسياب النغم و انسجام اللفظ في الآيات، ففي آخر كل آية تأتي الفاصلة في أسلوب مميز فريد خرج عن المألوف في النظم، وبطريقة تقع بها موقعًا جميلًا، فيتجلّى دورها في بيان وجه من وجوه الإعجاز القرآني.

- للفاصلة دور في حبك النص القرآني،ذلك أنّ جملة الفاصلة تأتي مناسبة لمضمون الآية،وتأتي هذه المناسبة من ارتباطها بآياتها عن طريق علاقات معنوية،مثل:التأكيد،أو التعليل،أو السبب والنتيجة،أو أن تكون متمّمة لمعنى الآية،وبذلك يتم حبك النص معنويًا.

- للفاصلة أثر جليّ في إثارة انتباه المتلقي،فالفواصل المنوعة تحمل القارئ على تأمل علاقة الفواصل المختلفة بسياقاتها وبنظائرها،والتحولات الموضوعية والدلالية التي صاحبت تغيرها. وقد ظهر ذلك على سبيل المثال عندما قارن الشهاب الخفاجي في شاهد سورة الأعراف(قالوا إنّا إلى ربنا منقلبون)(الأعراف:125)،وشاهد الشعراء(51)،كذلك عندما تحدّث عن اختلاف الفواصل في الوصايا العشر في سورة الأنعام بين(لعلكم تعقلون)و(لعلكم تذكّرون)و(لعلكم تتقون)(الآيات 151-153).

المصادروالمراجع:

1. ابن عاشور،1997م، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس.
2. التحرير والتنوير، 1984م ،الدار التونسية ، تونس، .
3. ابن منظور،2013م، لسان العرب، دار الحديث،القاهرة،مادة(فصل).
4. أبو حسن علي بن عيسى؛ النكت في إعجاز القرآن(ضمن مجموع به ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الرّماني والخطّابي والجرجاني)، تحقيق محمد خلف الله، وومحمد زغلول، دار المعارف، (سلسلة ذخائر العرب)، (د. ت).
5. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت:1394هـ)، زهرة التفاسير،دارالفكر العربي.
6. أبوزيد،أحمد،1992م، التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي،المملكة المغربية،جامعة محمد الخامس،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،1992م،مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء.
7. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت
8. والأندلسي،أبو حيان محمد بن يوسف،(ت:745هـ)، تفسير البحر المحيط ،تحقيق صدقي محمد جميل،دار الفكر ، بيروت.
9. حسان،تمام ، 1993م، البيان في رو ائع القرآن، عالم الكتب.
10. حسين نصار،1999م، إعجاز القرآن، الفواصل، الطبعة الأولى، مكتبة مصر، القاهرة.
11. الخازن، 1994م،علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ،أبو الحسن،(ت:741هـ)،تفسير الخازن، تحقيق:محمد علي شاهين، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية.
12. الخفاجي،1997م،شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (ت:1069هـ)،حاشية الشهاب المسمّاة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير

البيضاوي أبي سعيد ناصر الدين عبدالله(ت:691هـ)،ضبطه الشيخ عبدالرزاق المهدي، الطبعة الأولى ،دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان.

13. رفاعي، سمير عوض الله،2015م، الفاصلة القرآنية في سورة الأنفال، دراسة صوتية تركيبية نصية، جامعة الزقازيق، مجلة كلية الآداب، ع 73 .

14.الزركشي،2013م،البرهان في علوم القرآن، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي .

15.الزمخشري،1997م، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت: 538هـ)،تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعةالثالثة ،بيروت ، دار الكتاب العربي

16.السيوطي،2006م، الإتقان، القاهرة، دار الحديث،

17.الطبري،2000م ،أبو جعفر محمد بن جرير (ت: 310هـ)،جامع البيان في تأويل القرآن،تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة.

18.عبد القادربن فطة،2014م، جمال الفاصلة في القرآن، مجلة عود النود، ع 94.

19.العزاوي، عقيد خالد ،2016م، المناسبات القرآنية، دراسة لغوية بيانية،الطبعة الأولى، دار العصماء،دمشق،سوريا.

20.عقيلان،،طارق أحمد محمد،2009م، المناسبة بين الفواصل القرآنية و آياتها، دراسة تطبيقية لسورة الأنعام، غزة، ماجستير، الجامعة الإسلامية،كلية أصول الدين.

21.العمادي،أبو السعود محمد بن محمد (ت:982هـ)،إرشاد العقل السليم إلى مز ايا الكتاب الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي،.

22.الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي(ت: 708هـ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل،بيروت،بدون سنة طبع، دار الكتب العلمية

23.القاسمي، 1418 هـ،محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (ت:1332هـ)، (محاسن التأويل)، تحقيق: محمد باسل ، الطبعة الأولى ،بيروت، دار الكتب العلمية.

24.القرطبي، 1964م،أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين(ت: 671هـ)، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، تحقيق: أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش،الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ، القاهرة.

25.الكرماني ،أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر (ت: 505هـ) ، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ،تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الفضيلة.